شهرية العلم

ثعبان البحر

عاش القدماء فى جو الأساطير ، وكان هذا هو العلم وقت ذاك ، إلى أن جاءت البحوث العلمية الحديثة ، فطهرت بعضها من الشوائب وقضت على البعض الآخر ، وخلفتها بعد ذلك للأدب . ولما كان العلم كريما لا يهاجم ، فقد أبقى على أسطورة ثعبان البحر ، التى شغلت أذهان المفكرين وما زالت محل عنايتهم ، حتى تنتهى بحوثهم الحديثة منها . ولقد لعب الخيال دوراً كبيرا مع ثعبان البحر ، فكثرت حوله خرافات لا يستسيغها عقل ولا يهضمها منطق ؛ فقد روى بعضهم أنه رأى ثعبانا من هذه الزواحف طوله مائة قدم وله رأس فى حجم البرميل . ومما يقيم دليلا على عدم صدق هذه الرواية أن ثعبان البحر على هذا النحو من المبالغة فى الطول لم يعثر عليه حتى الآن ؛ لأن الزواحف البحرية العظيمة قد انقرضت منذ أمد بعيد لم يشهده إنسان .

ومن العجيب ان هذه الخرافات ما زالت تحتل مكانا لائقا فى أدمغة البحارة ، ولم يتعرض لها العلم بشىء من التكذيب ما دام البحث وراء هذا الثعبان جاريا . ونستطيع أن نقرر أن روايات هؤلاء البحارة نشأت من رؤيتهم بعض الأسماك الطويلة التى تظهر عادة فوق سطح الماء مثل السمكة المجدافية والشريطية . ونظرا لندرة هذه الأسماك فقد اعتبرت من أسماك القاع رغم بهاء ألوانها ؛ قد عنى الشعراء بوصفها ونعتوها بلؤلؤة البحر . ويبلغ طول هذه الأسماك ستة أمتار ، وهى تشبه الشريط ولها القدرة على تخزين الهواء فى عضلاتها وعظامها كما أن جلدها قابل للتمدد . وعند ظهورها على سطح الماء لا يبين منها إلا رأسها وجزء من زعنفة الذنب ، فهى فى هذه الحالة أشبه ما تكون بالثعابين ، وقلما تقع فى الشباك سليمة ؛ لأن جسمها الطويل الرفيع يهشم بعضه عند ما يمسك الصياد السمكة ، وذلك لتصلبها نتيجة لتمدد الجسم بما فيه من هواء . وتستطيع هذه السمكة الخروج إلى البر والمكث فيه بضع ساعات .

والواقع أن ثعبان البحر موجود فيه ، وأن ما عثر عليه حتى الآن لا يزيد طوله على أربعة أمتار . وهذه الثعابين توجد عادة فى جماعات كبيرة ، وقد تسير فى خط مستقيم ، حتى إذا مارأتها البحارة حسبتها ثعبانا واحداً له هذا الطول الذى زعموه . ولهذه الثعابين رئات كبيرة فيملؤها الثعبان بالهواء ويسد أنفه وينام على سطح الماء وقتا طويلا ، حتى إذا ما أحس بمفاجأة أفرغ الهواء من رئتيه وثقل جسمه وهبط إلى القاع . وهو يستطيع المكث طويلا تحت الماء ؛ لأنه يتنفس الهواء الذائب فيه بواسطة الشبكة الدموية الموجودة فى الثة . ومما لاشك فيه أن هذه الثعابين كانت برية ، ويدلنا على ذلك وجود الصفائح البطنية فى بعض الأنواع التى لا تزال تصعد إلى اليابس وتزحف عليه .

وتعود إلى البحر بريشته فهو ما يزال يعمل فى هذه الزواحف الخطرة ، فضمرت منها الصفائح البطنية ، وانمحت فى أنواع كثيرة من هذه الثعابين ، وتفرطح منها الذنب وأصبح كالزعنفة ليساعدها على العوم ، حتى أصبحت لا تستطيع العيش على اليابس فتموت بعد مدة ليست بالقصيرة إذا خرجت منه ، كما هو الحال فى الحوت أو القيطس . وكثيرا ما يقذف البحر بعد هياجه بآلاف من هذه المخلوقات السامة إلى الشاطئ ، فتموت هذه الثعابين وترتاح أحياء البحر من شرورها . وقد يساعدها الحظ فيأتيها الموج ، ويأخذها مرة أخرى إلى البحر بعد أن يتعذر عليها الزحف فوق الرمال . . .

وتلد هذه الثعابين صغارها فى الماء . ولهذه الصغار القدرة على العيش بمفردها . ولو أن الأم تعتنى بها فترة من الزمن وتحميها . وهذه الثعابين ليلية أى أنها تندس فى الشقوق نهارا حتى إذا ما غربت الشمس خرجت تبحث الرعب بين ساكنى البحر وعماره . وهى كغيرها من الثعابين البرية كالناشر والبخاخ تقتل الفريسة بسمها وتبتلعها من رأسها ، وبذلك تستطيع أن تأمن أشواك الزعانف . وسم هذه الثعابين قاتل كذلك للانسان . فقد حدث أن بحارة إحدى السفن أمسكوا واحدا منها وراحوا يلهون به ، فلدغ أحدهم فى سبابته فلم يهتم بهذا الحادث لأنه سمع من أحد الوطنيين فى بوغاز ملقا أن تلك الثعابين لا تضر أحدا وأنها ليست سامة ، وبعد نصف ساعة على الحادث تناول البحار فطوره وغير ملابسه وصعد على ظهر السفينة يمرح ويمزح ولم يشعر بأى تغيير على صحته . وبعد ساعتين سقط مغشياً عليه وضعف نبضه واتسعت حدقتاه وتصبب جسمه عرقا باردا ، وبدا وجهه كأنما حل به خوف ، وأصيبت القصبة الهوائية بشلل تعذر معه التنفس إلى حد كبير ، وتورم مكان الجرح وما حوله ، وعم الورم الذراع حتى الرقبة وتلون الوجه بلون أرجوانى قاتم . وحاول طبيب الباخرة محاولات عدة مخفقة فى إعطائه أدوية ، ولكن المريض استطاع أن يتناول شيئاً منها بعد حمام ساخن ، ثم لفظ هذه الأدوية على شكل سائل داكن لزج . وبعد عشرين دقيقة اعترت جسمه هزات عنيفة ، وعم الاحتقان البطن كله ، وأصبح التنفس شاقا ، وأرغى الفم وفقد المريض وعيه تماما ، وقضى نحبه ولم يمض على الحادث أربع ساعات .

حسين فرج نجم الدين